

آثار الشرق القديمة

مدرسة موسى عليه السلام

﴿ هيكل سيني ﴾

وصف التعليم في المدارس المصرية القديمة وعلاقتها بالهياكل وظهور
الوحداينة بعد تعدد الآلهة

كما اشتهرت به مصر في الزمن القديم مدارسها التي كانت المدارس المنظمة الاولى التي
نشرت في العالم نور المدنية والعلم . ولقد ورد ذكر هذه المدارس في رواية وردة التي
وضعها الدكتور جورج اهرس المستشرق الالماني الشهير ووعدنا القراء بتلخيصها في بعض
الاجزاء السابقة . فانجازاً للوعد نذكر ما ورد في هذه القصة المفيدة عن مدرسة بيت سيني
التي يقول المؤلف ان موسى الحكيم نبي بني اسرائيل قد ربي وتثقف فيها . وقد استخرج
المؤلف هذه الفوائد من الآثار القديمة واوراق البردي

وكانت المدارس في ذلك الزمن مقرونة بالهياكل كما يقرنها المعاصرون اليوم بالكنائس
والجوامع . وقد بدأ المؤلف قصته بوصف بيت سيني (هيكل القرنة) لان اهم حوادث
الرواية مبنية على رئيس الكهنة الذي يقيم في هذا الهيكل . وكان هذا الهيكل اعظم
هياكل طيبة في زمن هذه القصة اي في القرن الرابع عشر قبل الميلاد . وقد شرع في
بنائه رعمسيس الاول واتمه سيني الاول فسمي باسمه

« وقد خصص الملك مرتبات وافرة من المال لهذا الهيكل والمدرسة الكبرى والمدارس
العديدة الصغرى التابعة له وانصرفت العناية الى انشاء هذه المدارس على مثال مدارس
هيلوبوليس (١) ومنفيس لمنافستها في ميادين العلوم والمعارف حتى تفوق طيبة
التي جعلت وقتئذ عاصمة مصر العليا (الصعيد) شأ ومداين مصر السفلى (الوجه البحري)
التي كانت في ذلك العهد مركز دائرة العلوم ومنبعث انوار العرفان »

وكانت المدارس التابعة لبيت سيني تمتاز « بوجود مدرسة عالية فيها يتلقى فيها نجباء

الطلاب علوم الدين والطب والحقوق والرياضة والفلك والنحو الخ على علماء تزلعوا في هذه الفنون . وكان عدد التلامذة في كل مدرسة مائة تليد « ولا يُقبل فيها غير أبناء الوطن الاحرار بلا فارق بين غني وفقير او عزيز وحقير على شرط ان يدفع اهلهم او اولياء امرهم مبلغاً محدوداً في مقابل ما يتناولونه من الغذاء . وكان التلامذة الداخلية من ابناء الاكابر والاعيان يقيمون في مكان مخصوص حيث يكونون تحت مراقبة الكهنة . وكان التلامذة يعاقبون بالضرب بالعصي حيث كانت هذه العقوبة شائعة في المدارس كما يدل عليه المثل السائر في ذلك العهد « ان آذان التلامذة في ظهورهم فهم لا يسمعون الا اذا ضربوا »

« وكان يوجد عدا هذه المدارس مدارس الفنون والصنائع التي كان الطلاب يتلقون فيها ما يلزم من العلوم لتخريج مهندسي العارات والنقاشين والمصورين . ونظام التعليم فيها هو بذاته في الاولى اي ان التليد يختار المعلم الذي يامل بالتلقي عنه الوصول الى ذروة التقدم والنجاح . وكان يبلغ عدد الاساتذة كلها ٨٠٠ استاذ تخرجوا باجمعهم من بيت سيني وينقسمون الى خمس درجات ويرجعون في امورهم الى ثلاثة رؤساء يسمون (الانبياء) وكان اول هؤلاء الانبياء مرتبة وارقام درجة في العلوم والفنون رئيس كهنة بيت سيني وكبير قسوسها »

اما بيت سيني نفسه فقد كان بناء « وطيد الجدران يصل الانسان اليه من طريق قويم آخذ من ضفة النيل الى باب السور المحيط به . فاذا دخل من هذا الباب وجد نفسه في فناء واسع يحيط به من الجهات الاربع صفان متوازيان من الاعمدة الضخمة . وشاهد امامه حيال الباب الذي دخل منه باباً آخر صرف المهندسون حذفهم في تنسيقه وتجميله . والى جانبه هرمان ناقصان قد زادا في جمال الهندام وبهجة المنظر . وهذا الباب يوصل الى فناء ثان يشبه الاول في اتساعه وشكله لكنه لا يوجد به سوى صف واحد من الاعمدة في الجهة المقابلة للدخل الذي اتينا على وصفه »

« وكان يوجد خلف بيت سيني منازل كبيرة اشبه في شكلها بالمكعب مبنية بالطوب التي اتخذ من طمي النيل ومطلية من الخارج بطبقة من الجير قد رسمت عليها الصور والنقوش المير وغرافية . وتلك المنازل كانت معدة لاقامة الكهنة والعلماء المدرسين . وكان نظامها الهندسي من الداخل واحداً لاحتوائها على فناء تحيط به مشاة طويلة من الخشب توصله الى حجرات الاساتذة وفي وسط الفناء نافورة ينبط منها الماء على الدوام في حوض تحيط به شجيرات الازهار وتنصرف منه المياه في مسارب متعددة حتى لا تبقي فيها آسنة .

اما الطلاب فكانوا يقيمون في الطبقة العليا من هذه المساكن ويشلقون الدروس في فناء غير هذا الذي وصفناه جالسين فوق حصيرة مبسوطة على الارض »

« وكان مسكن كبير الانبياء الثلاثة ورئيس كهنة بيت سيني قائماً على مسافة مائة خطوة خلف هذا البيت تكلفه من الجانبين اشجار ذات ظلال وكان يعرفه القصاد من بعيد بالاعلام الكثيرة التي تخفق فوق سطوحه وكان الانبياء لا يقصدونه الا لاداء الواجبات المفروضة عليهم نحو النبي الاكبر ثم ينصرفون الى طيبة الاحياء حيث يسكنون في منازل خاصة بهم مع عائلاتهم »

اما حجرة رئيس الكهنة في هذا الهيكل فاليك وصفها « كانت هذه الحجرة من اوسع حجرات الهيكل واحسنها شكلاً حيث كان نصفها الاسفل الى ما يوازي ارتفاع القامة مكسواً بمربعات من الخرف والباقي مزيناً بالصور والنقوش العجيبة وكان لا يوجد بها من المتاع سوى مائدة كبيرة وسرير للاضطجاع عليه متكأ من سن الفيل مصنوع على شكل الهلال وفروة فهد ومقعد صغير وكراسي عديدة وخزانة فيها اوان من معدن وقدر من صلصال واخرى تحتوي على قنينات وقوارير من زجاج وغير ذلك من العلب المختلفة الاشكال والافدار وكثير من محار البحر . يضيء هذا كله ثلاثة مصابيح مملوءة بزيت الخروع تشبه الطيور في صورتها »

واما لباس رئيس الكهنة فاليك صفته « كان لباس الرئيس ثوباً من التيل ناصع البياض كثير الثنيات سابلاً الى كاحل القدم عليه وشاح ذو اهداب مسترسلة يحيط بخاصرته معقود من الامام في نقطة ينسدل منها طرفاه الى ما يوازي الركبتين وثناسك اجزاء هذا الثوب الكهنوتي بجائل من المقصب . وكان بعنقه عقد من اللؤلؤ والاحجار الكريمة على شكل قضيبين من سعف النخل متقاطعين من اسفل وبمقصيه دملجان عريضان من الذهب الابريز »

اما المعبد في هيكل سيني فقد ورد وصفه في الاسطر التالية « وكان المدخل الاكبر للهيكل مفتوح الابواب بحيث يري الواقف امامه ما يليه من فناء المذبح المبلط بالمرمر الصقيل وحوله ثلاثة صفوف متوازية من الاعمدة الضخمة الراسخة على قواعدھا المتينة فينبر من تناسق النقوش التي غطيت بها الجدران والافاريز والاعمدة وتيجانها وما جمعت من جمال الهندام وحسن النظام ويرى في وسط ذلك الفناء مذبح القرايين وحوله المباخر المعدة لاحراق كرات الربني (نوع من البخور) تسطع منها الروائح العطرة فتملاھ رحب المكان



﴿ تماثيل بعض الفراعنة منقوشة على جدار في هيكل سيني ﴾

وتستعمل من يستنشقها الى سنة من النوم »

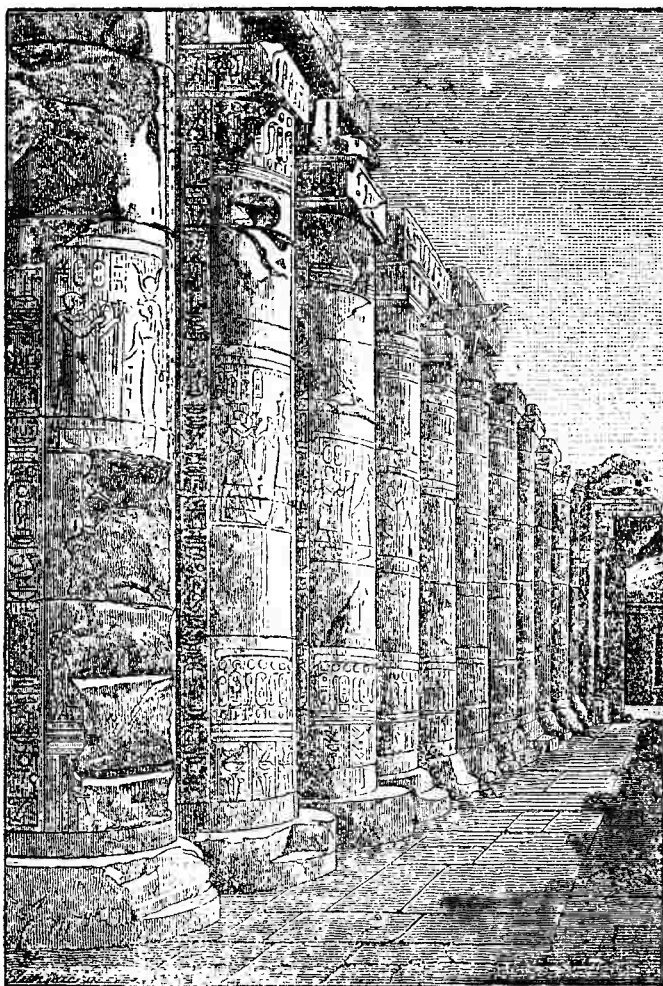
« وكان الاهالي مجهلون ما يقع بداخل الهياكل من الرسوم الدينية لانها كانت محاطة باسوار عالية فيها ابواب لا تفتح الا للكهان ساعة خروجهم الى الخلوات جماعات متتابعات في وقت شروق الشمس وغروبها للتغني بالاناشيد الدينية تعظيماً وتبجيلاً للالهين هوروس وطوم (١) »

« وكان كثيرون من كهان بيت سיתי يزاولون حرفة الطب لانهم بعد اتمام الدراسة في هذا البيت واحرازهم رتبة الكاهن او درجة العالم كان من يريدون منهم النبوغ في علوم الطب يذهبون الى مدينة هليوبوليس (عين الشمس) حيث كانت توجد اقدم واكبر مدرسة طبية في الديار المصرية » وبعد اتمامهم دروسهم في هذه المدرسة الكبرى يعودون الى طيبة وقيمون فيها « تابعين لنظام الكهنوت بمعنى انه اذا مست الحاجة الى طبيب فلا يطلبه الراغبون من منزله بل من هيكل سיתי حيث يقابلون رئيس الاطباء ويخبرونه باسم المريض وبصفون له اعراض مرضه فيرشداهم الى الطبيب المنقطع لعلاجه »

ذلك ان كل واحد من الاطباء المصريين القدماء كان ينقطع الى فن واحد من فنون الطب كالجراحة مثلاً او امراض العيون او غير ذلك ليبرع فيه براعة تامة . « وكان الاطباء كالكهنة يعيشون من ايرادات الاملاك الموقوفة للهياكل والضرائب المفروضة برسمهم على الاهالي والنذور التي يقدمونها الى الآلهة ولذا كانوا لا يقبلون من احد جزاء (اية اجرة) مقابل علاجهم لمرضه لان المريض كان اذا شفي من الاسقام التي اصابته بعث بالنذور والهدايا الكثيرة الى الهيكل الذي ينتهي اليه الطبيب الذي نجح في معالجته . وكان من العقائد الراسخة في اذهان العامة وقتئذ ان الشفاء من المرض يتوقف على النذور والقربان اكثر منه على مهارة الطبيب . ومن الحقائق المقررة في التاريخ ان قدماء المصريين بلغوا في المعارف الطبية شأواً بعيداً »

اما التلامذة في بيت سיתי فانهم بعد نيلهم « مرتبة عالم فقيه او كاتب نبيه لم ان يتفرغوا للكسب بمعلوماتهم وكانت لهم في المدرسة دار للكتب عظيمة الاتساع بها الوف من

(١) يشبه قدماء المصريين حياة الانسان بالشمس في مسيرها فشرورها رمز الطفولية وتسمى فيه (هوروس) وبلوغها الاوج رمز الفتوة والشباب وتسمى عنده (را) وافولها رمز الشيخوخة والهرم وتسمى فيه طوم (حاشية للمعرب)



﴿ احد جدران الهيكل الداخلية ﴾

المؤلفات النفيسة المكتوبة بخط اليد يرتبط بها معمل لصناعة ورق البردي (الذي كان يكتب عليه المصريون يومئذ) وكان البعض منهم تَنَاطَبَ به ادارة المدارس المتحققة بتلك المدرسة العليا »

وكل هذه القصة التاريخية الجميلة مبنية علي المسألة الدينية . فان رئيس كهنة بيت سبتي الذي كان في قبضته السلطان الديني الاعلى كان شديد الحفظ للتقاليد الدينية حتى

انه اجترأ على طرد ابنة رعمسيس من هيكل سيتي لانها رامت الدخول اليه وهي نجسة . وما الذي كان سبباً في نجاستها ؟ السبب هو انها بينما كانت قرب طيبة تسوق خيلاً جاءتها من الشام واذ داست الخيل ابنة احد دافني الموتى . فذهبت ابنة فرعون الى كوخ هذه الفتاة لثقتها وتعزبها . فمذ ذلك الحين اصبحت نجسة لمخالطتها دافني الموتى . ولما جاءت هيكل سيتي طردها رئيس الكهنة بقوله على لسان المؤلف « اعلي يا بنت انات ان القصور الباذخة التي شادها والدك ونضد ابنتها على اجل هندام انما هي قائمة على اعناق افراد الامة المصرية فاذا فككت عقال التقاليد القديمة التي تربط هؤلاء الافراد فلا مناص من التجاوز والتدابير المفضيين بلا ريب الى تداعي تلك الجدران »

اما الشاعر بنطاوهر تليذ رئيس الكهنة فانه قال له « ان الاله (را) الذي يجوب السموات العلى في زورقه الذهبي يبعث اشعته الشمسية الى اكواخ الفقراء كما يبعثها الى قصور الفراعنة ودور الاغنياء بلا فارق ولا يميز فلماذا تكون بيوت هؤلاء مطهرة واكواخ اولئك مدنسة »

فاجاب رئيس الكهنة « لا تدري ان العلم يشبه النار . اذا وجدت بيد من يحسن تدبيرها والتصرف فيها نفعته واذا وجدت بيد طفل — والشعب يبق دائماً في دور الطفولية — احدثت حريقاً يلتهم كل ما شيد في الازمان الغابرة من جميل الآثار وحميد الفعال . وقد كانت جذوة النار التي اوردت لك ذكرها على سبيل المجاز موجودة بين جدران من النحاس يمر الشعب من جانبها بدون علم بها . اما اليوم فقد رايت ثلثة في هذه الجدران . ونحن نستنزل اللعنات على الكهان الذين يزيدون تلك الثلثة اتساعاً » ولكن هذه الثلثة لم تلبث ان زادت اتساعاً لان العقل البشري كالبخار اذا ضغطته وزدت الضغط فجر الآلة وكسرها تكسيراً . ولذلك لم يلبث ان قام من قدماء المصريين نشأة جديدة نبذت عبادة الالهة المتعددة كالشمس والكلاب والسمك والقطط والعجول وعرفت الاله الواحد . وكان الشاعر بنطاوهر الذي تقدم ذكره من تلك النشأة الجديدة . وفي ذلك يقول المؤلف قبل ختام القصة في فصل عنوانه « ابن يجد المرء ربه » ما ملخصه

وقف بنطاوهر بعد خلاصه من الامر على هضبة ضيقة امام جبل سيناء قبل شروق الفجر فرأى « بريق الكواكب الساطع يبهت شيئاً فشيئاً تلاشيًا وتفايلاً امام ضوء الفجر المنبجج » وما زال الليل يولي الادبار حتى سطع النهار وارسمت في العيون قات تلك الجبال تتسحب فوقها السحب كدخان يتصاعد من بورة النار » ولم يكن بها من دلائل الحياة

غير سر كان يخلق بجانيه العربيين حول بنطاور وهو يتأمل في عجائب الخليقة واسرار الكائنات من تلك القمة العالية « ثم « هب نسيم لطيف انقشع بسببه الضباب الذي كان كحجاب يحجب النظر عن رؤية الوادي وانبعثت اشعة الشمس من وراء الافق فكلت هام جبل سيناء بتاج من الذهب « فصاح حينئذ بنطاور : انت الواحد الاحد انت الواحد الاحد

ثم التفت فابصر وراءه شيئاً طويلاً ليلجى جليل المنظر فقال له « لقد عرفتك فانت ميسو (١) وسبب معرفتي لك انني كنت طفلاً في (بيت سيتي) اتلقى المبادئ حينما تخرجت انت منه نابغاً في العلوم والمعارف . وقد اطلعتني اميني (رئيس الكهنة في بيت سيتي) كما اطلعك على سر الاعتقاد بوجود اله واحد . فقال ميسو وقد نظر بعين التأمل والاعجاب الى الافق الذي كان يزداد سطوعاً من جهة الشرق : اما اميني فلا يعرف من الاحدية شيئاً » وعند ذلك برزت الشمس من وراء حجاب الافق « فاول حركة بدرت من بنطاور (بطل الرواية) (٢) ان استقبلها بوجهه وبدأ في الصلاة . فلما انتهى منها شاهد ميسو يصلي ايضاً غير انه كان مستقبلاً الغرب ومستدبراً الشرق . فلما اتى على آخر صلاته ساله لم استدبرت وجه الشمس ونحن انما قد تعلمنا كلانا في المدرسة وجوب استقباله بمجرد اشرافه . فقال ميسو : اني اعبد الها غير ما تعبد . الشمس والكواكب مسخرات لامره . فقال بنطاور ارشدني الى طريق هذا الاله القادر . فقال ميسو : اجث عنه تجده لانك كابدت الآلام وقاسيت مشاق المتربة . واعلم انه تجلي لي في مكان مثل هذا وفي صبيحة يوم كهذه — قال هذا وذهب في سبيله »



(١) ميسو هو موسى باللغة المصرية القديمة . وحوادث هذه القصة حدثت في عهد رعمسيس الثاني الملقب بالكبير (سيزوستريس) وكان موسى معاصراً له فيما يقال وفي عهد خلفه خرج الاسرائيليون من مصر على ما هو مشهور

(٢) كان الشاعر بنطاور من شعراء الملك رعمسيس حقيقة وقد نشرنا كتاباً بشأنه في الجزء الاول من السنة الثالثة الصفحة ٥٥